(٥)

إلى شاطئ النجاة

« قاتل الله العصبية العمياء حيث كانت ، ولعن الله التفاخر الكاذب أينما وقع ، هذه يونان مثلا قد غرها شعرها وفنها وفلسفتها فاستكبرت عن قبولها الهدى بأنها من الشرق والجنوب على أيدى الرسل والأنبياء ، فما أغنى الشعر عن يونان شيئا ولا الفن ولا الفلسفة ، ولا حققوا بذلك سعادة ، بل غاصوا في بحار الشهوات فكانوا من الفرنين ، ومثل اليونان الرومان ، أنفوا ان يقبلوا الهدى من الفقراء فكانوا من الأشقياء ، وكذلك شأن كل متكبر جبار يتعالى عن قبول النصائح الهادى لأنه لا يد فقير او غريب !

ولقد اختار الله رجال الصحراء الأنقياء لينقذوا العالم من الهاوية ، فمن استجاب لهم نجا ، ومن تمرد عليهم هلك او ذل : ولا يزال الزورق ممدا لمن اراد النجاة »

الشرباصى

الى شاطىء النجاة

من القصص الهنديه ان اميرا من اهل البيوتات والشرف ورد نهراً ليغتسل فأشرف على الهلاك فبصر به رجل من اراذل الناس فأسرع اليه واخذه الى شاطىء النجاة فلما افاق الامير وتماسك سأل عن اسم منجده وحاله ، فاذا هو رجل وضيع النسب فاستشاط غضبا وعد صنعته جريمة حيث دنس جسده الطاهر بيده وامر به فعذب ذلك المسكين الكريم واوسع صفعا وضربا وصار نكالا للناس جميعا.

لم تنته القصة بعد بل انفق الأمير مرة ثانية ان دخل النهر ووقع له نفس الحادث وحاول النجاة فلم يفلح اما المذنب الاول فكان منه على كثب وكان ميسورا له انجاد الامير ولكنه لم يجترأ ان يكرر جريمته الأولى بعد ما عوقب شديدا حتى عبثت الأمواج بذلك الأمير السامي الكريم ولم تحتفل بكرامته ونسبه وذهب الرجل ضحية كبريائه وسفاهته .

هذه أسطورة لعلها سبقت الى مسامعك فاستغربت وقوع مثلها في العالم وصدورها من رجل رزق شيئاً من العقل ولكن الفكر الانساني له أطوار وعجائب وقد روى لنا التاريخ شيئا كثيرا من هذه المضحكات المبكيات ، فطالما اغرقت العصبية الجنسية والخيلاء النسبية الافا من البيوتات ومئات من الجماعات وفقدت رشدها في سبيل هذه العصبية والكبر حتى آثرت الهلاك على النجاة وفضلت الضلالة على الهدى واختارت الغي على الرشد وأبت أن تتبع رجلا لا ذنب له إلا أنه ولد في جنس آخر أو وطن آخر أو في بيت فقير أو شعب حقير واستنكفت من أن تتخذه قائداً ومرشدا .

وتقرأ لهذه القصة الطريفة نظائر وأمثله كثيرة في تاريخ الأديان والأخلاق ، والعالم الحديث وإن كان ذا عقلية واسعة وفكر عالمي لا يزال يتحفنا بحكايات ونوادر لا تقل من أسطورة الأمير طرافة وغرابة ، فقصة الأمير المتكبر الغريق التي تراها من القصص الخرافية المختلفة إنما هي حكاية صادقة عن بعض عجائب الانسان وتمثيل صحيح لناحية من نواحي الطبيعة البشرية وكان الأمير بطل هذه القصة ، ولكنها ليست قصة الامير وحده بل هي قصة تاريخية لآلاف من الناس العقلاء ومئات من الشعوب الراقية ليس فيها شيء من الكذب والوضع .

هل أتاك حديث يونان ؟ أرض الشعراء والأدباء وأرض الفلاسفة والحكماء ومن يجهل أفلاطون وأرسطوطاليس وبقراط وسقراط ؟ أرض قد يظن الرجل أنها لم تنجب غير الشعراء والفلاسفة والأطباء ولم يكن فيها إلا شاعر أو أديب ، أمـــة موهوبة وأرض مخصبة كانت فيها الحكمة والفلسفة وكانت فيها الأقليدسية والهندسة ، وكان فيها الشعر والأدب والتصوير والنحت وسائر الفنون الجميلة أرض كانت مادة لا تنقطع لكل ما أبدعه الذوق الانسانى وأوجدته القرائح البشرية ، فكان اليونان اساتذة العالم ولا تزال البلاد والأمم تزهو بتقليدهم حتى اليوم .

كان هذا وذاك ، ولكن هناك امور لا تحيط بها العقول البشرية ولا يتناولها العلم الانسانى ولاينفع فيه الذكاء وحدة الذهن وهى ماسر هذه الدنيا وكيف أوجدت ومن أبدعها وما ذا أراد بخلقها ثم ما مصيرها وغايتها وما هى الشريعة المرضية للحياة لدى خالقها وهل من حياة بعد هذه الحياة وإن كان لابد من الحياة الآخرة فما هى واجبات الانسان نحوها وكيف يتزود لها وبعد لها عدتها وما هو الطيب والخبيث والحلال والحرام ؟ هذه أسئلة يعجز الانسان عن حلها الصحيح بالحرص والظن فلا القياس يجديه نفعا ولا الظن يغنى عن الحق شيئا .

حاول اليونان كعادتهم ان يمروا بهذه الاسئلة مرور الشعراء والادباء وكان مجال الشعر فى هذا الوادى ضيقا غير فسيح وما كان الشاعر يوما من الايام فارس هذا الميدان وصاحب الكلمة فى هذا الموضوع ، حتى عثر اليونان فى كل خطوة خطوها ، نسبوا إلى الله عز وجل أمورا يستنكف منها الحر الكريم ، واختلقوا طوما را وهميا فى نسب العقول والافلاك اختلافا مضحكا وربطوا به العالم وأفرغوا أساطير الاصنام الخرافية (MYTHO LOGY) فى قالب الفلسفة وكسوا قصص الاصنام والآلهات المرصوعة لباسا دينيا عليا حتى قتلت هذه الخرافات من اليونان روحهم الدينية وبقيت اليونان ميتة بين الاموات جوفاء لا روح فيها ولا حياة ، أقفرت القلوب من خشية الله والافئدة من حبه وأثبت للقصص الغرامية الموضوعة للالهة والالاهات وأخبـــار معاشقتها ومغازلتها وعلاقاتها السرية فى الآداب اليونانية والمجتمع اليونانى تأثيرا سيئا فأثارت الشهوات الجنسية وأفسدت الحياة المنزلية ، حتى لم يبق هنـاك ميزانا للخير والشر

وقامت الفلسفة تحامى عن كل إثم وتحتج لكل شر ونهض أقطاب الفلسفة والحكمة يبررون البغاء ويدافعون عن المومسات وحرفتهن إلى أن أصيبت هذه الأمة الذكية بانحطاط خلقى هائل وفوضى فى الاجتماع المعاشرة وانحلال خلقى واجتماعى لا بقاء لأمة عليه ، وسال هذا السيل الجارف لكل علم وأدب وذهب بكل خيرات اليونان وحاصلاتها الممتازة بين البلدان .

وكانت وراء الشرق الجنوبى من اليونان بلاد وأمم كانت دون اليونان عقلا وعلما فما كان فيها حكماء مثل سقراط وافلاطون ولا شعراء مثل هوميروس وعسقليوس ولا رجال الهندسة والرياضة مثل اقليدس وفيثاغورث ولم تكن لها يد طولى فى الفنون الجميلة إلا ان الله سبحانه اختار فيها رجالا بالرسالة والنبوة واوحى اليهم دينه وافاض عليهم علوم ذاته وصفاته ومنحهم فى سر هذه الحياة ومصير هذا العالم علما محكما لا يتطرق اليه الشك ووهبهم دعائم دينية يقوم عليها بناء الاخلاق والاجتماع والمدنية الصالحة فى كل عصر .

لقد كان اليونان يملكون ثروة عظيمة من الكلمات الحكيمة والمصطلحات العلمية والبحوث الفلسفية ولكن الأنبياء كانوا يعرفون حقائق الأشياء وجوهرها ولبها وكان فى يد اليونان الغاز معقدة عن الكون والاجتماع والأخلاق كلما حاولوا حلها ازدادت تعقدا والتواء ، اما اولئك فكان فى ايديهم المباركة طرف كل حبل ومفتاح كل قفل .

كان فلاسفة اليونان يتلاعبون بأصداف من بحر الحقيقة الماتج ويعبثون بالحزف والحصاة اما هؤلاء فقد خاضوا ذلك البحر العظيم ونزلوا فى اعماقه فأخرجوا درره النفسة الغالية وكان الاغريق يعلمون كل شى ويجهلون انفسهم وقد دونوا تاريخ العالم بأسره فما من بقعة من بقاع الارض إلا احاط بها اليونان علما وخبرا ولكنهم لم يطلعوا على مدبر العالم الوحيد وقد افلسوا فى الروح والأخلاق إفلاسا شائنا ، عجزت علومهم وفلسفة الأخلاق ان تنفخ فى رجل واحد روح الطهارة وخشية الله واشرب الناس فى قلوبهم حب الشهوات وتهافتوا على اللذات ورتعوا فى المحرمات واطلقوا عنانهم فى الفحشاء والمنكر .

اما الانبياء فكل من اتصل بهم او هبت عليه نفحة من نفحاتهم خرج من اسر الهوى وتحرر من رق الشهوات وخمدت فيه جذوة الاثم وتولدت فيه الدواعي القوية . للتقوى والطهارة وبلغ من معرفة الله ومحبته ومن اليقين درجة لم يبلغها حكماء اليونان وفلاسفتهم .

أما فلاسفة اليونان فقد عجزوا من أن يربوا تلاميذهم النجباء على الزهد والتقوى ومقاومة النفس والهوى وذلك بعدما علموهم قسطا وافراً من العلوم والآداب ، وخرجوهم فى فنون الفلسفة والاخلاق أما الرسل (صلوات الله عليهم وسلامه) فكانوا يرفعون الأنفس الوضيعة من حضيض الحيوانية إلى أوج الانسانية بغير واسطة الكتب وأدوات التعليم ثم يعدونهم لمغالبة الشيطان والنفس الأمارة بالسوء فكانوا ازهد فى الدنيا واحرص على البر واخوف لله وأملك من كبار الحكماء والفلاسفة ، اعمق الناس علما وأبرهم قلوبا وأفلهم تكلفا .

بلغت دعوة هؤلاء الرسل الى اليونان وقرعت الآذان فما كان منهم إلا أن أنفضوا رؤسهم فى سخرية واستهزاء وأجابوا فى احتقار وازدراء ابعد هذه العلوم الواسعة والمكتبة الزاخرة والاكتشافات المدهشة فى كل علم وفن نقتدى بأميين لايحسنون الكتابة والقراءة ولا يعرفون مبادىء العلوم ؟ هذا والعالم كله متطفل على مائدة علومنا وفلسفتنا ويطرب لادبنا وشعرنا ويتفاخر بتقليدنا وأى علم نجهله حتى نحتاج إلى أن نراجع فيه غيرنا ، فكان عاقبة هذه الكبرياء أنهم استغنوا عن هداية الرسل وضيعوا فرصة الانتفاع بعلومهم التى لا توجد عند غيرهم ولا تصلح الحياة الا بها واصبحت علومهم التى كانت مجردة عن هداية الرسل ومعرفة الله تعالى منبع الفساد والعلة فى جسم حياتهم تنفث السم وتفسد الدم وتعميهم عن الحقائق وتغشلهم بالفضول حتى اصبحوا فريسة الادواء الخلقية والشرور الاجتماعية والتنافر الجنسى والاضطراب المنزلى وأصبحوا حديثا فى التاريخ وقصة من القصص الماضيه وكانوا كما وصف الله تعالى فى القرآن ، فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن ،

وقد تمثلت هذه الرواية فى رومة بعينها رومة التى ورثت عن اليونان نتاج علومها وسياستها إلى أن فاقت صاحبتها فى النظام السياسى والتشريع وفن الحرب وقد قبضت رومة فى براثنها الحديدية على ناصية القارات الثلاث اوربا وآسيا وافريقيا واستولت عليها كأسرة واحدة وأجادت فى إدارة المملكة وكثرة الفتوح والمستعمرات ولباقة التشريع وحماية الفنون الجميلة كالنقش والنحت وفن البناء والعمارة فقد فاقت رومة فى كل ذلك على أخواتها وبرزت ولكنها بقيت جاهلة اسر الحياة ولم تتمكن من أن تستقى من معين الحقيقة الصافى وكانت تدين بعبادة الاصنام والأجرام وقد فقدت المعايير الصحيحة وخسرت قيم الاخلاق وموازينها الصحيحة وظلت بعيدة عن الهداية الكاملة المعصومة . فكان عاقبة ذلك أنها أصيبت بأمراض خلقية روحانية عسيرة ، كتبذير الاموال والغلو فى الترف والبذخ والجشع المادى والتهافت على الاموال واللذات وازدياد الضرائب والاتاوات فعاد كل ذلك وبالا على رومة وعذابا أليما وفسدت الأذواق ومسخت الأذهان حتى بلغ أهل رومة فى القسوة وحب التفرج والاستهانة بالنفس البشرية مبلغ السباع والمجانين حتى كثر التفرج على المبارزة بالسيف (GLADIATOR) بين القرنين وكان يزدحم أهل رومة للتفرج عليه وكان أحب المناظر إحتقارا القتلى وأنين الجرحى وكانت ولائم الأمراء وحفلات الأغنياء تضاء باحراق العبيد احياء (١) هذا ولم تر فى رومة حكيما ينتقد هذه العادات الهمجية وعالما يذم هـــذه القسوة والسبعية .

وفى ذلك العصر عصر الانحطاط والتدهور فى الأخلاق والمعاشرة بعث فى الأمم الشرقية غير واحد من الرسل (صلوات الله عليهم وسلامه) فوصلت أخبارهم ودعوتهم الى رومة ولكن أنفت رومة . رومة ـ وهى سيدة العالم ـ من ان تصغى الى رجال ولدوا فى أمم منحطة وبلاد غير راقية واستهان أهلها بدعوتهم وكيف تقبل رومة الى رجال لاسيادة لهم ولا سلطان وهى صاحبة الأمر والنهى فى

---

(1) History Of The European Morals By Deccy

بلادهم ، فكانها قالت بلسان الحال « انؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون » ولم تزل حجة المنكرين من الاغنياء والمترفين من قديم الزمان « لو كان خيرا ما سبقونا اليه » ماقدرت رومة نعمة النبوة حق قدرها فأغرقتها العصبية القومية وكبرياء الملوكية وأخذتها موجة طاغية من الفساد والانحلال والفوضى وحيت من الوجود « ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهدوننا فكفروا وتولوا واستغنى الله ، والله غني حميد » .

كانت رومة وإيران والصين والهند فى القرن السادس المسيحى من البلاد المتمدنة فى العالم ولكن كل غصن من أغصان الديانات أصبح ذاوياً لايثمر ولا يورق وكل مشعل اشعلته النبوة فى زمانها فقد نفذ زيته وانقطعت مادته ، أفلست الأمم والاديان فى اليقين ومعرفة الله الصحيحة وكان التخدين والحرص بضاعة المتدينين ومطية العلم والدين وكانت هوى الأنفس روح السياسة والاجتماع وكان الدين والملوكية كفرسى رهان ورضيعى لبان فى الخدعة والمكر تخذت الصوامع والبيع والكنائس من القيادة الرشيدة وتنازلت منذ أمد بعيد من إرشاد الناس ولنظرة عجلى فى الهندوكية والبوذية والمجوسية والمسيحية يدل على ان هذه الديانات قد فقدت نضارتها واطفأت مصابيحها فلا تكاد تضيء ولو مستها نار فلا توقظ الروح ولا تنعش الضمير ولا تبعث خشية الله والشعور بالواجب، تحمل الأحكام الواضحة والأوامر البينة التى فصلت من لدن حكيم خبير .

أنهكت الدولة الفارسية والرومية الفلاحين والصناع والتجار بالضرائب المتنوعة والاتاوات المبتدعة المستحدثة التى اصبحت لهم الشغل الشاغل والهم الوحيد فى الحياة حتى دهشوا عن التماس حقيقة سامية أو السعى للاخرة وكان مثلهم كمثل الثيران نهارها تعب وليلها نوم وحياتها شقاء للغير وحظها علف وماء وذلك ايضا لتقوى على الخدمة وتقضى حاجة أصحابها .

أما الهند فقد بلغ فيها التفاوت بين الطبقات والانساب والحرف مبلغ التفاوت بين البشر والحمير والبقر ، بل نزل المنبوذون فيها منزل الكلاب والخنازير ولطخت الشهوة الجنسية والروايات الغرامية المعابد والذخائر الأدبية والدينية وتغلغلت عبادة القوة والمال فى احشاء الأمة وبقى الدين رسماً

باليـــا واسما لبعض الطقوس الدينية والتقاليد الاجتماعية أو مجموعا لمصطلحات الفلسفة والبحوث الفارغة .

وبالجملة أن الأمم المتمدنة قد أصبحت فريسة المدنية الممســـوخة والأدواء الخلقية والاجتماعية الفاتكة . حتى صارت لاتجـــدر لحمل الرسالة المقدسة والجهاد فى سبيلها وإغاثة الانسانية الملهوفه إذ كانت أكبر وكر من أوكار الفساد وأعظم عله من علل شقاء الانسانية .

نظرت الحكمة الالهية إلى عرب اهل الأرض وعجمهم فقتهم واصطفت لنشأة العالم الثانية الأمة العربية ولم تكن دون الأمم الوثنية الأخرى فى عبـــادة الأصنام وإنحطاط الأخلاق غير انها لم تلحقها عدوى المدنية المصطنعة والحضارة المزوره والرذائل التى تأتى بها الحكومات وتحملها العبودية السياسية والروحية ثم اجتبى منها فرداً كان نسيج وحده فى طيب عنصره وزكاء فطرته وعلو همته وقوة جأشه وصدق عزيمته ، وعفاف نفسه وعزوفه عن الشهوات وكان أية فى الشجاعة والثبات بحيث لو عارضه الجن والبشر وعاداه البر والبحر لمـــا ضعف ولا استكان ولو وضعت على يمينه الشمس وعلى يساره القمر لما تحير ولا تخير لو راودته الجبال الشم من ذهب عن نفسه لعصى وأبى . ولو عرضت عليـــه الرئاسة والملك وكنوز الأرض ومفاتيح الخزائن لرفضها من غير تأن ، فلم يكن أحد أجدر منه لحمل الرسالة ولا أقوى عليها منه فى مثل هـــذه الساعة العصيبه وفى أشد يوم من أيام الحرج ولم يكن فى النوع الانسانى فرد يوزن بالعالم كله فيرجح عليه ويتأبى عليه جنود الشيطان وقوى الشر فينتصر عليها ، ويشق طريقه فى عقبات وأشواك حتى يصل إلى نجاح لم يتهيأ لأحد قبله ولا بعده ، فيبدأ المهمة وهو وحيد لاصاحب له وينتقل إلى ربه وقد غير مجرى التاريخ وخلف وراءه أمة فاضلة عادلة قوية متناسقة كأنها حلقة مفرغة لايدرى أين طرفاها وذلك كله فى ثلاثة وعشرين سنة .

وكانت العقلية الانسانية قد نضجت وأدركت فاستحقت الرسالة العامه والنبوة الانسانية كلها وقد بلغ النوع الانسانى سن الرشد فاستحق الرسالة الاخيرة والنبوه التى لانبوة بعدها فمنح الله محمدا ﷺ دينا بينا محكماً مفصلا كاملا يسع جميع

شعوب العالم وجميع طبقاتها وكل أفرادها وجميع شؤون حياتهم يغذى العقل وينير الفكر ويوقظ الروح ويربى المواهب الفطرية وكان حياة كامله محيطة بكل مايحتاج إليه الانسان من العقائد والاخلاقيات إلى مايتجدد من شئون المجتمع والمدنيه فى زمان أو مكان ، محكما لاعوج فيه عروة وثقى لا انفصام لها . فلا يقبل النسخ والتبديل ولا يحتاج معه إنسان الى إشتراع أو ابتداع

وكان هذا الدين ثروة يشترك فيها بنى آدم وكانت قسمة كل شعب وفرد قسمة غير ضيزى ومجالا فسيحا لطيران كل فرد وعروجه على السواء فلم يكن فيه سلطان اسرة خاصة ونسل معين (كلكم من آدم وآدم من تراب ، لافضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى إلا بالتقوى) « يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن اكرمكم عند الله أتقاكم » .

فنرى فى العصر الاول سلمان من إيران وصهيبا من الروم وبلالا من الحبش وكثيرا من بنى جلدتهم يساهمون قريشا وأشراف بنى هاشم فى كل فضل وخير ويفضلون كثيرا منهم بالدين والعلم ونسمع عمر خليفة المسلمين يلقب بلال بالسيد ، ثم نرى فى حواضر المملكه الإسلامية ومراكزها الكبرى غير واحد من حديثى الاسلام والعجم يسودون المسلمين الذين ورثوا الدين عن آبائهم والسادة العرب ونرى الملوك والامراء والاشراف يخضعون لفتاويهم وأقضيتهم وكان رئيس المسلمين الدينى وكبيرهم فى كل مدينة كبيرة أيام عبدالملك رجلا من الموالى إلا الكوفة وكان ينادى فى موسم الحج الذى يقصده المسلمون من كل فج عميق — فى مثل مكة المركز العربى الكبير — الا لا يفت إلا عطاء بن ابى رباح وكان مولى .

مكث الفرس والرومان مدة من الزمان ينظرون الى الاسلام كعدو بغيض والى المسلمين كمغتصبين وأصابتهم دهشة الفتح وسرعان ماتبدلت فكرتهم ونظرتهم وفتحوا للإسلام أبواب صدورهم المقفلة وعقولهم المعطلة فأصابوا من مائدته البسيطة الممتدة على كل ناحية من نواحى الأرض فضربوا فى حسنات الاسلام بسهم وافر وفاقوا كثيرا من العرب فى العلوم الدينية والفضائل الاسلامية فكان فيهم مثل أبى حنيفة ومحمد

ابن اسماعيل البخارى ومسلم بن الحجاج النيسابورى وأبى داؤد السجستانى وأبى عيسى الترمذى الى امام الحرمين الجوينى وحجة الاسلام الغزالى الطوسى وكثير من النوابغ والعبقريين المسلمين الذين يتحدرون من اصول عجمية وملوك مجاهدين صالحين كنور الدين الزنجى وصلاح الدين الكردى وملكشاه السلجوقى وشمس الدين ألتمش سلطان الهند وناصر الدين محمود وغياث الدين بلبن ومحمود شاه الكجراتى ومظفر الحليم ومحمود كاوان الدكنى واورنك زيب التيمورى الذين لا يزالون موضع الاعجاب من المؤرخين وظهر فى التاريخ الاسلامى أسر حديثة العهد بالاسلام تحكم المسلمين كسلاجقة نيسابور وزنج الشام واكراد مصر وآل عثمان فى تركيا واسرة المملوكين فى الهند وممالك مصر وهكذا جمع الاسلام للعجم بين السيادة العلمية والروحية والسيادة السياسية وذلك اقصى ما وصلت اليه امة فى دين جديد .

وقد حملت رحمة الاسلام ببلاد أوربا عن طريق الأندلس وتألق الاسلام نجما فى سمائها ثمانية قرون ولم يكن عرب الأندلس مثلا كاملا فى روح وتمثيل الاسلام والأخلاق الاسلامية ولا شك انهم لم يكونوا كاصحاب النبى ﷺ فى الاخلاص والحماسة للدعوة الاسلامية والتأثير فى اخلاق الأمم وعقولها ولكنهم كانوا على علاتهم - افضل جدا من الأوربيين فى الدين والأخلاق والعلم والعقل ، عندهم كتاب منزل ودين محكم وشريعة مدونة ، ومنحت اوربا فرصة طويلة للتدبر فى ذلك الدين والنظر فى كتابه المبين وفهم شريعته السمحاء .

ولكن اوربا لم تهتبل هذه الفرصة السعيدة ولم تنتفع بها فاهلكتها العصبية الصليبية والكبر الاقليمى الذى لا يزال شعارها حتى اليوم ، وهذا ما ورثته عن اليونان المتكبرة وروما المغترة فلم تزل تنظر الى مسلمى الأندلس نظرا شزرا نظر العداوة والبغضاء والحسد والشحناء وقد استفادت من مهارتهم فى الطب ونبوغهم فى الفلسفة كلما اضطرت الى ذلك ولكنها لم تنتفع بملاك امرهم وراس مالهم وجوهرتهم الغالية وهى (الاسلام) حتى فى القرن الخامس عشر المسيحى جن جنونها فاجلت مسلمى الأندلس من ارضها الى افريقيا وتمادت فى جهلها وطغيانها الى ان طمست آثارهم الدينية والثقافية التى كانت ذخيرة ثمينة لأوربا ايضا واجلت الاسلام من تلك البلاد فأجلت بجلائه رحمة سماوية اظلتهم ثمانية قرون .

فكان عاقبة هذا ان نهضة اوربا العلمية والعقلية (Renaissance) تأخرت لعدة قرون وجاءت نهضة خرقاء هو جاء اذ كانت على غير هدى وعلى غير اساس دينى خلقى فوقعت اوربا وغيرها من أمم العالم فى هوة اللادينية وعبودية المادة؛ فلم يكن فى اوربا بعد جلاء المسلمين منها من يرشدهم الى الدين الصحيح والأخلاق الفاضلة التى هى اساس المدنية والمجتمع ولم يكن فيها بعد المسلمين من يساعدهم فى الجمع بين الدين والعقل وسعادة الدنيا والآخرة اما الديانة التى تدعو اليها الكنيسه النصرانية فكانت اوهاما وعصبية ومجموع تاويلات الأحبار والرهبان وتفسيراتهم الغامضة المعقدة والأقوال المتضاربة المضطربة والجغرافية المسيحية المقدسة والتاريخ المقدس الذى لا يؤيده العلم ولا يوافق عليه العقل وكل ذلك ما يبغض اليها الدين ورجاله أما الأمور التى هى دعامة العلم الصحيح والعمل النافع كمعرفة الخالق وصفاته والوحى والنبوة الحياة الآخرة فلا قبل لأوربا بمعرفتها ولا سبيل لها الى الوصول اليها فكانت لذلك عاجزة عن تعيين غاية الحياة وموقف الإنسان من هذه الحياة والكون ومركزة فى العالم .

فكانت النتيجة الاولى ان اوربا ركبت عمياء فى سفرها وخبطت خبط عشواء فى حياتها شغلها البحث فى الآفاق وعلم الكائنات عن خالق الارض والسموات فلم يصل من الخلق الخالق ومن الكثرة الوحدة وتكدست عندها المعلومات والاكتشافات ولم تستطع أن تسلكها فى سلك ولم توفق ان تنفخ فيها روح الحياة وتهتدى الى مركزها وتستعملها فى صالح الانسانية وسعادتها .

والنتيجة الثانية انها لما حرمت الدين وروحه حرمت الضمير الحى والقلب الحساس والشعور الرقيق وتهذيب النفس والتغلب على الشهوات فلم تزل فى رقى وعلو فى العلوم وتظفر بفتح بعد فتح فى الدائرة الطبيعية ولكنها لم تزل فى انحطاط وسقوط فى الروح والأخلاق حتى انتهت فى سفرها الى منزل جمعت هناك بين ذكاء الحكماء والفلاسفة ومقدره الجن والعفاريت أما الأخلاق والأعمال فتنازلت الى طباع الأطفال وميول الشياطين ، امتلكت للقوى والوسائل التى سخرت لها الهواء والماء والعرق والبخار والحرارة والقوة ولكنها ظلت محرومة عن المقاصد الصحيحة وميول الخير التى لا تحصل إلا بفضل الدين الصحيح والتربية

الخلقية فاصبحت هذه الوسائل إما ضائعة فى مقاصد حقيرة لاتنفع الانسانيه شيئا او مضرة تستعمل فى دمار الانسان وتخريب الحضارة نفسها وقد تسلط شيطان الأثرة على اوربا بأسرها فأمم تفتك بالأمم وطبقات تغزو الطبقات وافراد ينحرون الأفراد ولم تقف عند هذا الحد بل وصلت فى الأخير الى القوة الذرية التى تأتى على الحرث والنسل وتجعل البلاد الواسعة قاعا صفصفا .

اضاعت اوربا مواهبها وثمرات عقولها وعلومها باعراضها عن هداية الدين فعادت كلها وبالا عليها وعلى العالم . لاشك انها تملك مادة واسعة من العلوم وتفاصيلها التى قد لاتحتاج اليها ولكنها تجهل الأصول والمبادىء للحياه الانسانية واعرضت عن العمل بها ولا ريب انها حلت الغازاً عديدة معقدة شديدة التعقد ولكنها عجزت عن حل اللغز الأكبر لغز حياتها فكانت كما قال الدكتور محمد اقبال فى بعض قصائده يشير الى بعض غرائب الغرب.

« من الغريب ان من اقتنص اشعة الشمس لم يعرف كيف ينير ليله وكيف يصبح وان من بحث عن مسالك النجوم وطرقها لم يستطع ان يسافر فى بيداء اذكاره ومن عكف على الألغاز يحلها ويشرحها لم يستطع ان يميز النفع من الضرر .

ولا سبيل لأوربا الآن الا ان تتشجع وتعترف بانها افلست افلاسا شائنا فى الأخلاق والروح وفشلت فى الحياه فشلا تاما وتستغيث الدين الاسلامى والهداية المحمدية ، الهداية التى تمنحها غاية الحياة الصحيحة وتنفخ فيها روح الحياة وترشدها إلى خالق الكون ومدبره وتمنحها فى ذلك علما واضحا غير ملتبس فنجمع لها بين الحب والخوف وطالما فرق بينهما فلم يكن الأول إلا على حساب الثانى وتبعث فيها الايمان بحياة بعد هذه الحياة . إيمانا يحول بينها وبين الجنايات والخيانات الفردية والاجتماعية والخلقية والسياسية ويلقى على عاتقها مسئولية تجعل منها أمة أمينة تخاف الله فى السر والعلن وتتقى الفواحش ماظهر منها ومابطن .

ثم لابد هنا من سيرة إنسان كامل يستطيع أن يكون إماما وقدوة فى كل شأن من شئون البشر وفى كل عصر من العصور وأن يكون مثلا كاملا فى العبادة والتقوى والأخلاق والسلوك والسياسة والاجتماع وفى السلم والحرب والرضا والغضب والضعف والقوة وفى الحياة المنزلية والزوجية والفردية والاجتماعية ويصلح أن يكون المثل كأخ ووالد وزوج وصديق وقاض وامير وغنى وفقير

وتاجر وحاكم وقائد جيش وعاهل أمة ذلك هو محمد ﷺ الذى لايزال المثل الوحيد للبشرية فى أطوارها ومختلف أدوارها ثم لابد لتلك السيرة أن تكون محفوظة بتفاصيلها وان تكون وثيقة تاريخية لايشك فيها .

ثم تتبع ذلك وتعضده تراجم رجال اهتدوا بتلك السيرة واحتذوا بها فى عصر زاه متمدن فى أكبر مراكز الحياة والمدينة مع حمل أعباء الحكومة واحتمال تكاليفها ولم تزل قدمهم عن صراط الأخلاق والمبادى. ولم تفتنهم فتنة المال والقوة ولم تمل بهم صهباء الحكومة والسيادة عن حياة الزهد واتضاعة اولئك أصحاب محمد ﷺ ومن تبعهم باحسان .

هذا مع شرائع عادلة للمجتمع الانسانى وآداب حكيمة للاخلاق وأحكام واضحة للسياسة وحدود فاصلة للحياة لو حافظت عليها أوربا كانت بنجوة عن رهبانية المسيحية ومادية العصر الحاضر وغلو البراهمة وتطرف الفرس وتقشف الرواقيين وغلظة الرومان وخلاعة اليونان ، هنالك تحل الانسانية والفكرة الأفاقية محل القومية الوطنية ، والايثار مكان الأثرة ، والاقتصاد بدل الاسراف ، والقناعة بدل الشره والنهامة ، والهدوء والسلام بدل القلق والاضطراب والتعاضد والتعاون.

ان هذا المعين الصافى للحياة على كثب من أوربا فى متناول يدها ولكن الاستقاء منه يحتاج الى شجاعة كبيرة وذلك ماتحجم عنه أوربا وتروغ عنه سادتها وكبراتها ، انهم يستطيعون ان يدمروا الشعوب والبلاد ويحولوا العالم كله الى خراب ويشاهدوا الامم تخوض الغمرات وتعانى السكرات وتقلها الجراحات ويشاهدوا حضارتهم تنتحر بخنجرها وينهار صرحها ويتداعى قصرها ولكنهم لا يستطيعون - لكبرهم وعنادهم - أن يعترفوا بأنهم فشلوا فى مهمتهم وان حضارتهم قد افلست وان سياستهم قد خابت واخفقت وان علومهم قد اضرت بهم وان عقولهم قد خدعتهم انهم لايزالون يحكمون الخونة الجائرين ويخضعون للزعماء الجاهلين والحكماء الفاسقين ويرجعون فى الدواء إلى المتطببين المشعوذين ولكنهم يأبون أن يرجعوا إلى أمى ﷺ وماذلك الا لانهم رفعوا الستار عن أسرار الكون وسخروا البرق والبخار وملأوا الدنيا كتبا فى كل علم وفن فكيف يسوغ لهم أن يراجعوا من لا يعرف صناعة الكتابة ولا يعلم فن القراءة ، أن مثل الكبر والأنانية دفعت أجيالا من البشر إلى الهاوية وذلك داء أوربا العضال.

أما الأقطار الشرقية التي تعتني إثر اوربا في كل شيء فهي أسوأ حالا من أوربا لأن هذه الاقطار الشرقية قد أفلست قديما في ديانتها وروحها وفقدت بقايا الوحي والنبوة ولم تصل إلى ما وصلت اليه اوربا من العلم والعقل والوعي السياسي والشعور بالواجب والاخلاص في القومية أو الوطنية والمحافظة على النظام فليست عندها قوة روحية ولا شريعة سماوية وكذلك ليس عندها ما تمتاز به اوربا من العلم والمدنية والتربية السياسية والاخلاق الاجتماعية فاذا عاشت اوربا بفضل نظامها وإتقان شئونها مدة من الزمن لم تستطع هذه الاقطار أن تسلخ عقودا من السنين فما نالته الاستقلال إلا وظهرت الفوضى في السياسة والاجتماع والانحلال والفساد في الاخلاق وفشت الخيانات وعمت الرشوة وراجت السوق السوداء وضج الناس من جور الحكام وحيفهم وخيانة الوزراء وإسرافهم في أموال الامة وبطالة العمال وجناياتهم واحتكار التجار ومغالاتهم في الاثمان وعيل صبر الناس وسئموا الحياة وتمنوا الموت والهجرة من الاوطان .

ان دواء هذه العلل التي أصيبت بها هذه البلاد هو مخافة الله عزوجل والايمان بالبعث بعد الموت ولكن هذه المخافة لن تصدر من فلسفة مهما كانت قديمة مرت عليها العصور ولا من شعر مهما كان أعلق بالنفوس ولا من تاريخ مهما كان مؤثرا رائعا . ان مصدر هذه النفسية ومنبع هذا اليقين هو الدين الذي جاء به الانبياء في عصورهم وجاء به محمد ﷺ للابد ولا تزال أبوابه مفتوحة لكل طارق .

يحتوي تاريخ كل بلاد على تعاليم عالية وحكم سامية وأمثال فائقة للمروءة والكرم وروايات شائقة للايثار والتضحية والوفاء والسماحة والامانة والشجاعة ولا بأس أن تذكر هذه المآثر في الحفلات التاريخية والمجامع العلمية ولا بأس بأن يغتبط بها الانسان في بلاد وبروبها ويتغنى بها الشعر والادب ولاريب أنها تراث ثمين يجب أن تحتفظ به الحكومات الوطنية ويستفيد منه المؤرخون والمؤلفون .

أما استخراج عجلة الحياة الانسانية الثقيلة التي غاصت في الوحل فلا يمكن بالعلوم الانسانية ولا المعاني الشعرية ولا النكت الأدبية ولا الروايات التاريخية ولا البحوث الفلسفية ولا النظم السياسية ولا يمكن تحويلها من جهة الشر الى الخير وتسييرها على خط الأخلاق الدقيق الا بقوة الدين المتغلغل في أحشاء الراسخ

فى الاذهاء الذى يملك على الانسان مشاعره ويقهر شهواته وكل يعلم كيف غاصت هذه العجلة فى القرن السادس المسيحى وأعيا الناس أمرها حتى قطعوا منها الرجاء هنالك جاء محمد ﷺ لا يملك قوة مادية ولا يملك وسائل التعليم والدعاية والطباعة فدفعها بقوته النبوية وقوة الدين الذى جاء به والايمان الذى يدعوا اليه فوثبت من مكانها ولم تزل سائرة والركب الانسانى هذه القرون المتطاولة ، ان هذه القوة لا تزال كامنة فى هذا الدين الخالد والكتاب المحفوظ وهى على استعداد تام لانجاد البشر واغاثة الامم اذا أرادت ذلك وطابت به نفوسها .

وطبعا تلك الثروة والقوة أقرب إلى آسيا منها الى أوربا والانتفاع من تلك النعمة الجليلة أيسر للامم الشرقية والاسيوية بالنسبة الى الامم الغربية ثم انها أقرب الى الامم والحكومات التى تدين بالاسلام منها الى الامم التى لا تدين به وهى فى أحضانها يتلون كتاب الله ويؤمنون بالرسالة واليوم الآخر ويافظون بكلمة الاسلام ، فلهم فى كل حين ان يحكموا هذا الدين فى حياتهم ويحلوا به عقد حياتهم التى اعيتهم ويداووا به أمراضهم التى نهكتهم فاذا لم يفعلوا ذلك وهلكوا كانت كارثة كبيرة وكانت مهزلة لم يشهد التاريخ مثلها .

نرى الناس كيف يسعون فى علاج سقيمهم وكيف يرجعون فى ذلك على كل طبيب بقطع النظر عن جنسيته ووضيته ودينه وعقيدته ويحضرون له كل ما استطاعوا اليه سبيلا ، فلا تقف فى طريقهم العصبية ولا تمنعهم القومية والوطنية عن اتخاذ طرق التداوى واستخدام الاطباء على اختلاف أجناسهم وأوطانهم .

كذلك على قادة الامم المريضة والساهرين عليها أن يعملوا و يجهدوا أنفسهم فى التماس دوائها والسعى لشفائها ، فكارثة أمة بأسرها أفجع من كارثة أسرة أو فرد وان حق الامم المريضة على قادتها وزعمائها أكبر من حقوق المرضى على ممرضيهم وأقاربهم فلا يستغرب اذا نقبوا لذلك فى البلاد واتخذوا فى الارض نفقا وإلى السماء سلما وغاصوا فى البحار يلتمسون لها الدواء ، لكن لا حاجة الى هذا التنقيب والعناء فالاسلام أقرب اليهم من ذلك وأيسر وهو مستعد دائما لانجادهم اذا اتسعت له صدورهم وطرحوا العصبية جانبا والقرآن يخاطب أبناء القرن العشرين كما خاطب أبناء القرن السادس المسيحى قائلا : (لقد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور ويهديهم الى صراط مستقيم)